من الأدب الفرنسي المعاصر

أندريه جيـــد

André Gide

بقـــلم على كامل

كثيراً ما تقع أعيننا على صورة نقشها يراع رسام بارع ليعبر بها عن فكرة من الأفكار فاذا هذه الصورة توافق هوى فى نفوسنا لأول نظرة بحيث نرى فيها خير ما يمكن التعبير به عن هذه الفكرة . كذلك قد نقرأ جملة قصيرة خطها قصصى أو ناقد يصف بها شخصاً من الأشخاص فاذا هذا الوصف بالنسبة لنا كأنه كان ضالة منشودة وصلنا اليها بعد طول عناء . . . كأن كلا منا كانت تتردد أمام عينيه هذه الشخصية يريد وصفها وتحديدها ولكن عبثاً ، حتى جاءت الجملة التى قرأها فنزلت على قلبه وأعصابه المتلهفة القلقة برداً وسلاماً !

وغيرُكَ مَنْ إنْ مَسَّهُ الحيفُ عافَهُ وثارَ على مُستكبرٍ يَتهضَّمُ
ولا تَمْدُدَنْ كفّاً إليــه مصافحاً فَتُرْفَضَ وَأَصْمُتْ إنَّ صَمْتَكَ مَغْنَمُ

بذا قضت الأقدار: شَعبٌ مُكابِرٌ عنيزٌ، وشعبٌ يُستذَلُّ ويُظْلَمُ
ولا تَذْكُرَنْ مجداً لمصرَ وَأَعْصُراً تَسامَى بها المُلكُ الرفيعُ المعظَّم
ولا تذكُرَنْ عهداً به السُّمْرُ وَطَّدُوا بناءً لهم فى العالمين ودعَّموا
وعهداً إذا رَجَّى به الناسُ مُنْتَمًى إلى العزِّ قال العزُّ للعَرَبِ أنْتَمُوا!
وعهداً به أمْسَى الزمانُ مسبِّحاً بمجد الألَى لله صَلَّوْا وسَلَّموا
ولا تَرْثِيَنْ تلك العهودَ ولا تَنُحْ عليها فما يَدْنِي المشيَّعَ مأتَمُ
وتلك عهودٌ قد تَوَلَّتْ وقد تَلَتْ شعُوبٌ، ومَنْ لم يَحْكُموا الناسَ يُحْكَموا
فَعِشْ رَاغماً أو فاسْمُ للعز ضارباً بعَزْمٍ إذا ما أُحْجِمَ الجبنُ يَقْحَمُ
وحزمٍ يُصِمُّ السَّمْعَ عن هَيْعِ كاشحٍ وجِدٍّ يُحِبُّ الصَّمْتَ لا يَتكلَّمُ

فجزى أبو السمر.

أندريه جيـــد

كان يجب أن يمر بنفسى هذا الخاطر وأنا أقرأ الدراسة القيمة التى كتبها فى الشهر الماضى الناقد الفرنسى بنجامان كْرُميو عن أندريه جيـد . ذلك الكاتب الفذ الذى جاوز الخامسة والستين وهو مع ذلك لا يزال شاب القلب والنفس يتزعم مدرسة (التحرر الأخلاق) Immoralisme فى الأدب الفرنسى الحديث ، ويعالج مشاكل الشباب النفسية وخصوصاً الجنسية والنزعات الطائشة المتغلبة التى تلازم الكثير منهم بصراحة جريئة وحرية لا حد لها حتى نفر الشيوخ من ذلك الكاتب الشيخ . واحتفظ الشباب بالولاء له وتمجيده والتهام أدبه

لم أكد أقرأ قول بنجامان كرميو : (إن أول نظرة إلى أندريه جيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب قلق ، معقد ، يتركب من عدة شخصيات . ولكنه يمت إلى نوع نادر من البشر) ثم قوله . (وعندئذ لا نلبث أن نعرف أن فنه صورة منه) . لم أكد أقرأ ذلك حتى مرت أمام عينى كشريط سينمائى كل الصور التى رأيتها لأندريه جيد . وتذكرت عددا من مجلة (Vu) كان قد نشر ـ لمناسبة لا أذكرها الآن ـ بضع صور له فى فترات حياته المختلفة: فى الشباب والرجولة والكهولة . وتذكرت معه هاتين العينين الحائرتين ، والوقفة المضطربة ، والشارب المحلوق النادر بين الفرنسيين . الذى يندر به من سن الستين الى الثلاثين . فعرفت عندئذ مقدار ما فى قول بنجامان كرميو من الصدق ودقة الملاحظة

* * *

نعم إن فن أندريه جيد وفلسفته هما قبل كل شىء صدى لمشكلة نفسه ومأساة حياته . فقد نشأ جيد فى أسرة دينية متقشفة من أب بروتستنتى وأم كاثوليكية . وكان أثر بروتستانتية والده أعمق من أثر كاثوليكية والدته . وربى جيد تربية دينية خالصة ، فكانت هذه التربية وتناقضها مع طبيعة جيد أولا ومع الظروف التى صادفت شبابه ثانياً سبباً قاسياً فى أن تجعل من حياته مأساة

انسانية كبرى ، وأن تجعل شخصيته فريسة لحرب شـعواء بين جيد المتدين بولادته وأسرته وتربيته ، وجيد المتحرر تحرراً كلياً من سيطرة الدين بعقله وإرادته

عنـد ما بلغ جيد سن الشباب استيقظت نفسه على أشعار الجيل الأول من المدرسة الرمزية فى الشعر الفرنسى تحت زعامة فرلين ورامبو وملارمى . وكان عهد ازدهار هذا الجيل قد آذن بالمغيب وخلفه الجيـل الثانى الذى من أعضائه فرنسيس جيمز وبول كلوديل ، وبول فور . فانضم إليهم أندريه جيد إذ وجد فى الشعر الرمزى الحالم السابح فى أجواء الخيال ، المتحرر حتى من القيود الشعرية نفسها ، سبيلاً إلى الانطلاق من عالمه الدينى الضيق المخنوق . ولم يكن تأثر جيد بالشعراء الرمزيين قاصراً على فهم حسب ، بل وجد فى حياة الكثير منهم مثل فرلين ورامبو مثلاً أعلى لحياة الفنان الحر الطليق الذى يريد أن يصل إلى فهم الحياة الحق مهما كلفه ذلك من الثورة على كل تقليد ، والخروج على كل عرف أخلاقى ؛ على أن رمزية أندريه جيد لم تبلغ فى تحكم العاطفة بها ما بلغته رمزية الجيل الأول . فهو أقل حدة فى العاطفة وجموحا فى الخيال . وهو أمر سخرية وأعمق تفكيراً وأشد رغبة فى ادراك حقيقة نفسه ، وأعظم انطلاقا وتعلقاً بالحياة المرحة . وفى أول كتبه Les Cahiers d' André Walter (دفاتر أندريه ولتر) (١٨٩١) تراه يعبر عن ذلك بقوله (يجب النظر إلى الحياة بعين شاملة وطبيعة طلقة مع الاحتفاظ بالنفس المتيقظة)

وفى ذلك الوقت أيضاً ـ وقت شباب جيد ـ غزت فرنسا أفكارُ الفيلسوف الألمانى (نيتشه) ، والكاتب الأيرلندى (أوسكار وايلد) فتأثر بهما اندريه جيد تأثراً عظيما . أخذ عن الأول فكرته عن (السبرمان) ، وعن الثانى فكرته عن سيادة الفن وحق الفنان فى أن يحيا على هامش العادات الأخلاقيـــة المرعية ، والاثنان ـ جيـد ووايلد ـ يتفقان فى إيمانهما بفكرة الجمال عند الأثينيين القدماء

كذلك تأثر جيد بفكرة الكاتب الفرنسى موريس باريس Barrés عن (عبادة النفس) Le culte du moi وأخذ عنه سخريته العالية

وأخيراً يجىء دور الكاتب الروسى دستوفسكى فكما أن نيتشه واوسكار وايلد كانا أعظم من أثر فى جيد الشاب ، كان دستوفسكى أعظم من أثر فى جيد الرجل

من ذلك نرى أن جيد قد تأثر بكل الآراء المتطرفة المعاصرة له ، أليس هو القائل : (إن كل ما هو متطرف يؤثر فى ؟) لقد تأثر بالشعراء الرمزيين الفرنسيين ، وبأوسكار وايلد الايرلندى ، ونيتشه الألمانى ، ودستوفسكى الروسى . لذا كان أدبه كلاسيكى النزعة . على أن جيد على رغم كلاسيكيته بعيد كل البعد عن العبودية لمن تأثر بهم . فشخصيته القوية المستقلة تنبض بها أعماله كلها بشكل قوى مؤثر ، وإن طبيعته الثائرة القلقة وجهده الصارخ فى التحرير لجملاته يجرى وراء الثقافة الواسعة التى لاتعرف التميز بين كاتب وآخر (فأنا ـ كما يقول ـ أنتظر دائماً شيئاً أجهله : أنتظر ضروباً جديدة من الفن وأفكاراً جديدة) ولقد بلغت به رغبته الحادة فى المعرفة الشـــاملة الى دراسة اللغات الأجنبية كى يقرأ أعمال من يعجب بهم بلغاتهم الأصلية

* * *

كانت أعمال جيـــد [1] الأولى (دفاتر أندريه ولتر) (١٨٩١) و Traité du Narcisse (١٨٩٢) و Le Voyage d' Urien (١٨٩٣) عبارة عن اعترافات تتضمن نزعات جيد الفكرية التى أراد بها التحرر مرة واحـدة من حياته الظاهرة المتقشفة . فى أول أعماله يقول (الحياة الطلقة ، تلك هى أسمى حياة ، سوف لا أستبدل بها غيرها مطلقاً . لقد ذقت من هذه الحياة الطلقة ضروباً كثيرة . على أن الحياة الحقيقية كانت أقصرها)

وفى هذه الأعمال الثلاثة الأولى يلمح القارئ بين سطورها ميولاً جامحة خفية يحاول جيد أن يحجم عن التصريح بها

على أن هذه الحرية التى يبيحها جيد لنفسه دون قيد لاتلبث أن يطغى عليها أحياناً إحساسه الدينى فيقول فى نفس الكتاب : (إننى أتمنى وأنا الآن فى الحادية والعشرين من عمرى ، وهى

(١) ولد أندريه جيد فى باريس فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وتعلم فى مدرسة الالزاس Ecole alsacienne ومدرسة هنرى الرابع Lycée Henri IV وأهم أعماله الأدبية : Les Cahiers d' André Walter (١٨٩١) — (١٨٩٢) Traiié du Narcisse — (١٨٩٣) Le Voyage d' Urien — (١٨٩٥) Paludes (١٨٩٧) Les Nourritures Terrestres — (١٩٠٢) Saül — L' Immoraliste (١٩٠٣) Prétextes — (١٩١١) Le Retour de l' enfant prodigue (١٩٠٧) La Porte étroite — (١٩٠٩) isabelle La Symphonie — (١٩١٤) Les Caves du Vatican (١٩١١) — (١٩١٩) pastorale — (١٩٢١) Si le grin ne meurt Souvenirs de la cour d' assises — (١٩٢٣) Dostoievsky Voyage — Œdipe (١٩٢٥) Les faux monnayeurs — (١٩٢٤) Essais — Robert — (١٩٢٧) Retour du Tchad — au Congo (١٩٢٩) L' Ecole des femmes — sur Montaigne

السن التى تنطلق فيها من عقالها الشهوات ، أن أقمعها بالعمل المضنى اللذيذ . إنني أود فى الوقت الذى يجرى فيه الآخرون وراء ملذاتهم أن أذوق اللذات الخشنة التى تلازم حياة الصومعة)

وفى Les Nourritures terrestres (١٨٩٧) نرى جيد يبلغ انطلاقه الكلى من حيث الدعوة إلى أن المعرفة لا تأتى عن طريق الفكر بل عن طريق الحس . من ذلك قوله : (إنك لا تستطيع أن تقدر المجهود الذى كان لزاماً علينا بذله لكى نحس إحساساً صادقاً بالحياة ، والآن وقد تحقق ذلك فهو كالحال مع كل شئ آخر عن طريق الحس والشهوة) وكقوله أيضاً (لقد تكلمت هنا وهناك كى أستطيع أن ألمس كل من يتكلم - إن قلبى يفيض بالحنان والحنين إلى كل من لا يعرف أين يجد مكان دفنه . وأحب حباً مفرطاً كل من يهيم بالتجوال والتصلك)

ثم انظر كيف لا يستطيع الفرار فى هذا الكتاب أيضاً من إحساسه الدينى حين يقول :

كنت أقرأ (عقيدة العلم) لفيخت[1] فشعرت بأننى سأعود متديناً من جديد

وفى L' Immoraliste (١٩٠٢) نرى عبقرية جيد ، وتأثره العميق بالفيلسوف نيتشه ، قد تعاونا على إظهار فكرة (التحرر الأخلاق) حيث نرى بطل القصة (ميشيل) - وهو رجل مريض - يتقدم نحو الشفاء كلما حرر نفسه من الأوضاع الأخلاقية

وفى La Porte étroite (١٩٠٩) و Isabelle (١٩١١) و La Symphonie pastorale (١٩١٩) نرى جيد - وخصوصاً فى القصة الأولى - يعالج شخصيات تخالف تماماً فى تفكيرها ونزعتها ما نراه من الأفكار والنزعات فى الأعمال الأولى ، لأن الأولى استسلام مطلق لنداء الحياة ، والثانية استسلام مطلق لنداء العاطفة الدينية . فبينما نرى (ميشيل) فى قصة L' Immoraliste ذلك الثائر على نظام الأسرة ، الهاجر لماله وزوجته ، المتمرد على الراحة والأستقرار ، الراغب فى الرحيل إلى أبعد مكان ، الواجد فى الحرية الجسدية والانطلاق الحسى شفاءه العاجل . نرى أيضاً (أليسا) Alissa فى قصة La Porte étroite تلك الفتاة الوادعة المتقشفة التى تغمرها العاطفة الدينية حتى تدفعها إلى رفض الزواج من ابن عمها (جيروم) الذى تحبه لكى تقصر نفسها على الاستسلام لأحاسيسها الدينية ، وتقترب من الله الذى تسميه (الأحسن) Le meilleur

ولا شك أن القصصى العبقرى هو الذى يرسم لنا بين حين وآخر صوراً إنسانية متباينة تختلف كل الاختلاف عن شخصية راسمها الذى تسمو عبقريته كلما استطاع التجرد من كل مؤثر ذاتى . وهذا هو ما نراه فى قصتى Eugenie Séraphitus Séraphita ، Grendet للقصصى العظيم بلزاك ، والقصتان تقتربان من حيث تناقض نفسية الشخصيات من قصتى جيد L' immoraliste و La Porte étroite ؛ على أن الفرق بين بلزاك وجيد - من هذه الناحية - أن بلزاك فى قصتيه يرسم لنا شخصيات خارجة عن نفسه . أما جيد فكل شخصية من شخصيات قصصه عبارة عن فكرة متحركة من أفكاره . ففى قصتيه السابقتين نراه يختفى وراء شخصيتى (ميشيل) و (أليسا) ، فشخصية (أليسا) هى صدى حياة جيد الطفل الذى نشأ بين أعطاف الدين فطبع حياته كلها بطابع لم يجد جيد وهو رجل سبيلاً الى التخلص منه ؛ وشخصية (ميشيل) هى شخصية جيد الشاب المفكر الذى نظر حوله فوجد أن حياة الزهد الماضية قد حرمته كل متع الحياة فلم يجد وسيلة الى التحرر من تراث ماضيه وتعويض ما فقده من العمر فى أحضان الزهد والحرمان إلا بانكار كل قاعدة أخلاقية واستغلال كل دقيقة للتمتع بكل لذة مستطاعة

وقد يلام أندريه جيد ويتهم فنه القصصى بالنقص لأنه اختفى وراء كل شخصياته ولم يرسم لنا صوراً إنسانية خارجة عن نفسه شأن القصصيين العباقرة . والواقع أن جيد ليس له من النبوغ القصصى نصيب عظيم ، وإنما عبقريته الحق هى فى تلك الدعوة الحارة إلى (سيادة الحياة) وفى ذلك البحث المتواصل فى سبيل فهم نفسه والنفس الانسانية . وفى ذلك الاحتمال الباسل لهذا الكفاح العنيف داخل نفسه بين تربيته وبين تفكيره بين العاطفة الدينية وبين الأباحية الأخلاقية . ثم أخيراً فى محاولته الجريئة للتوفيق بينهما كما سنرى . ذلك كله هو الذى يعطى فن أندريه جيد لوناً تجديدياً وضاء ، ويعطى كتبه ذيوعاً قل أن نصادفه فى كتب أعاظم الكتاب المعاصرين . أليس هذا الفن - كما يقول الناقد أندريه بير - هو خير تعبير عن اضطراب العصر الذى نعيش فيه ؟ إن فى كل صفحة من صفحاته تجد النفوس القلقة الجامحة مجالاً لا مثيل له لراحتها النفسية ، فهو يكتب كما يقول (حتى يجد كل مراهق يصبح فيما بعد مماثلا لى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى - ولكنه يكون أكثر منى حرية وشجاعة وأعظم كمالا - جواباً لسؤاله المرتجف) فما هو هذا الجواب ؟ ذلك ما سوف نراه

البقية فى العدد القادم

على فاضل

(١) فيخت فيلسوف ألمانى متأثر بفلسفة (كانت)